

ميدل إيست آي: هكذا كشفت الحرب الإسرائيلية على غزة عن كراهية الغرب للفلسطينيين

الاثنين 30 أكتوبر 2023 07:20 م

سلط موقع "ميدل إيست آي" الضوء على الازدراء الأخير الذي شهده العالم للفلسطينيين، الذي يكشف أن الغرب لم يصبح أقل عدائية تجاههم وأن أي تعاطف يقتصر على كونهم ضحايا فقط. وقال الموقع في تحليل كتبه "جوزيف مسعد": "حشدت الحرب الفلسطينية الإسرائيلية المستمرة دعماً غربياً هائلاً لليهود الإسرائيليين، مقروناً بدعوات الإبادة الجماعية "للقضاء" على الفلسطينيين من مختلف ألوان الطيف السياسي الغربي". وأضاف: "وفي الواقع، حتى الأصوات المتعاطفة مع الفلسطينيين أدانت عملية الهروب من حراس السجن الإسرائيليين في 7 أكتوبر كما سارعوا إلى تبني الدعاية الإسرائيلية، بما في ذلك الادعاءات الغربية عن الأطفال مقطوعي الرأس والاغتصاب، والتي تراجعت عنها نفس المنافذ الغربية فيما بعد بهدوء مثل "سي إن إن" و"لوس أنجلوس تايمز".

صدمت هذه الكراهية الغربية المتعصبة للفلسطينيين والعشق لإسرائيل معظم العرب، حتى أولئك الذين اعتبروا الغرب العدو الرئيسي للشعب الفلسطيني؛ فعلى مدى العقود الأربعة الماضية، كان هناك مفهوم خاطئ سائد بين المثقفين ورجال الأعمال والنخب السياسية الليبرالية والعرب المؤيدين للغرب، مفاده أن الليبراليين الغربيين، وحتى بعض المحافظين، قد غيروا وجهات نظرهم تجاه الفلسطينيين وأصبحوا أقل عدائية.

ومع ذلك، فإن هذا التغيير يقتصر على كون الفلسطينيين مجرد ضحايا للمذابح لكن هذا لم يترجم إلى دعم عربي لحقهم في مقاومة مستعمرهم الساديين، وأي تعاطف يتلقونه يتعايش دائماً مع الدعم الغربي الذي لا يموت لإسرائيل بغض النظر عن عدد الفلسطينيين الذين تقتلهم.

تقليد راسخ

ازدراء الغرب الأبيض للشعب الفلسطيني هو تقليد راسخ يعود إلى القرن التاسع عشر في ذلك الوقت، قاوم الفلسطينيون الأصليون الإنجليز الأمريكيين والبريطانيين والألمان البيض المتعصبين البروتستانت الذين سعوا إلى إنشاء مستعمرات في فلسطين كما رعى البريطانيون مشروع تحويل يهود أوروبا إلى البروتستانتية وإرسالهم إلى فلسطين لاستعمارها لكن بما أن هذا المشروع حقق نجاحاً محدوداً، فقد أدى إلى ظهور الصهيونية اليهودية.

وأظهر الصهاينة اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وما بعده ازدياداً مماثلاً للشعب الفلسطيني الذي سعوا إلى هزيمته وموته وطرده من أجل تحقيق مشروعهم المتمثل في الاستعمار الاستيطاني للبلاد.

وأشار "ميدل إيست آي" إلى أن وعد بلقور البريطاني وعصبة الأمم اعتبارا الشعب الفلسطيني مصدر إزعاج وفي أسوأ الأحوال يمكن الاستغناء عنه لغرض تأمين نقل اليهود الأوروبيين من أوروبا إلى فلسطين كمستعمرين.

وكان الازدراء العنصري الأوروبي والأمريكي للفلسطينيين مستوحى من المواقف الاستعمارية البيضاء التقليدية تجاه الشعوب غير البيضاء قبل الحرب العالمية الثانية وبعد الحرب وفي أعقاب الإبادة الجماعية الأوروبية لليهود الأوروبيين، فإن الأوروبيون وحلفاؤهم اليهود الصهاينة جعلوا الفلسطينيين يدفعون ثمن جرائم أوروبا المسيحية من خلال إجبارهم على تسليم وطنهم للصهاينة الغزاة.

بعد أن طرد الصهاينة غالبية الشعب في عام 1948، لم يعد الفلسطينيون الذين يمكن الاستغناء عنهم مرة أخرى يعتبرون أكثر من "مشكلة اللاجئين العرب"، كما بدأت قرارات الأمم المتحدة بالإشارة إليهم، وتم نسيانهم وإحالتهم إلى مزبلة التاريخ.

تعاطف متناقض

ويبدو أن وضع الفلسطينيين قد تغير في العقود اللاحقة ويبدو أن ديناميكية جديدة قد اخترقت المفاهيم الجامدة التي ميزت الفلسطينيين في الولايات المتحدة وأوروبا وبدأ المعلقون وصانعو السياسات من مختلف ألوان الطيف السياسي الغربي في التعبير عن وجهات نظرهم تجاه الفلسطينيين التي لم يعبروا عنها من قبل.

لم تكن هذه التغييرات في توصيف الفلسطينيين في الغرب مستوحاة من إعادة ضبط الأخلاق (اللاأخلاقية) الغربية، بل من التطورات التي حدثت في منتصف الستينيات فصاعداً والتي جلبت الشعب الفلسطيني إلى واجهة السياسة العالمية.

وفي ضوء عمليات حرب العصابات الفلسطينية المناهضة للاستعمار بين عامي 1968 و1981، فإن الفلسطينيين الذين فشلوا في التسجيل على الرادار الأخلاقي الغربي لمدة عقدين من الزمن، تتم إدانتهم الآن باعتبارهم إرهابيين متوحشين، أو في الواقع "كحيوانات"، لمهاجمتهم إسرائيل المسالمة والتي كانت ولا تزال تعتبر امتداداً للغرب الاستعماري.

ولكن بعد مذبحه صبرا وشاتيلا في سبتمبر 1982، ومع ظهور صور المدنيين الفلسطينيين المذبوحين على أغلفة المجلات الرئيسية، بدأت تتنوع وجهات نظر المعلقين السياسيين الغربيين تجاه الفلسطينيين، من الانتقادي والمعادى إلى الانتقادي والودي.

وأوضح "ميدل إيست آي" أنه في حين أن المستويات المتفاوتة من العداوة والود تبدو وكأنها تعكس اختلافات جوهرية، فإنها في الواقع تشترك في نفس الافتراضات الأساسية على سبيل المثال، عارض المعلق السياسي الأمريكي المحافظ "جورج ويل"، إقامة دولة فلسطينية وتقدير المصير ودافع بشدة عما اعتبره مصالح إسرائيلية ومع ذلك، تمكن "ويل" من حشد بعض كلمات التعاطف مع الفلسطينيين بعد المذابح: "لقد أصبح للفلسطينيين الآن بابي يار (موقع للمجازر التي نفذتها ألمانيا في أوكرانيا ضد السوفييت) أو ليديتشي (عملية إبادة جماعية للذكور حدثت في التشيك بقرية ليديتشي). لقد غيرت مذبحه بيروت الحسابات الأخلاقية بالشرق الأوسط، مما أدى إلى إنتاج تناسق جديد للمعاناة".

وفي أعقاب الانتفاضة الفلسطينية الأولى، التي كانت غير مسلحة إلى حد كبير، بدأ المعلقون الغربيون متناقضين، فأظهروا بعض التعاطف مع شعب أعزل يحارب الاستعمار لكنهم ما زالوا يدينونه عندما يعرضون جنود الاستعمار الإسرائيلي للخطر ولكن الراحل "أنتوني لويس"، الذي كان كاتب عمود ليبرالياً في صحيفة نيويورك تايمز، دعم الحقوق الفلسطينية خلال الانتفاضة ولكن على الرغم من ذلك، طالب بإدانة "ياسر عرفات" بسبب الهجوم الانتقامي الذي شنته جبهة التحرير الفلسطينية على شواطئ إسرائيل بالقرب من تل أبيب، والذي لم يسفر عن أي خسائر في صفوف الإسرائيليين.

والفارق الوحيد الواضح بين وجهة نظر "لويس" وأنصار إسرائيل المتحمسين يرتبط بالقضية الحتمية المتمثلة في الإيذاء الجسدي الحقيقي للفلسطينيين؛ حيث دعم الفلسطينيون بقدر ما كان الفلسطينيون ضحايا وأهدافاً للعنف الإسرائيلي. ومن هنا، سرد "ميدل إيست آي" توضيحاً في فهم تطور المواقف الغربية تجاه الفلسطينيين بعد عام 1948: بدءاً من الازدراء التام والرفض في الفترة 1948-1968، والانتقال إلى الإدانة والعداء الشديد في الفترة 1968-1981، وإظهار بعض التعاطف مع ضحايا المجازر الفلسطينية في الفترة 1982-1987، وأخيراً التعاطف والإدانة المتناقضة في الفترة 1987-1993. وفي فترة ما بعد عام 1993، كانت تلك النسخة الأخيرة من التعاطف المتناقض والإدانة هي السائدة.

الكراهية المتعصبة

بالنسبة للعديد من الفلسطينيين والعرب، بدأ التناقض الغربي تجاه الفلسطينيين بمثابة تحول واعد. وشعر المثقفون ورجال الأعمال والنخب السياسية الليبراليون الفلسطينيون المتحمسون أن هذا التناقض من شأنه أن يساعد في دفع النضال الفلسطيني إلى الأمام. وأشار "ميدل إيست آي" إلى أنه بينما قد يتعاطف بعض الغربيين مع الفلسطينيين باعتبارهم ضحايا للقمع الإسرائيلي، فإنهم لا يتعاطفون مع أي شكل من أشكال المقاومة التي يتبناها الفلسطينيون. لكن المشكلة في هذه الإثارة الفلسطينية الليبرالية هي عدم إدراك طبيعة هذا التناقض الغربي. لقد فشلوا في إدراك أن القناعات الأساسية التي تحكم المكان الذي يتناسب فيه الفلسطينيون مع الأخلاق الغربية ليست مستمدة من ما يفعله الفلسطينيون أو لا يفعلونه، ولكن من كيفية تعاملهم مع اليهود الأوروبيين. وأضاف "ميدل إيست آي": "مكانة اليهود الأوروبيين في الغرب هي التي تحكم كيف يرى الغرب اليهود بفلسطين، وكيف يُنظر إلى اليهود الأوروبيين في العالم العربي. وفي حين يتم تصوير اليهود الأوروبيين في الغرب كلاجئين فارين من النازيين والأهوال اللاحقة وضحايا الالتزامات البريطانية تجاه العرب، فإن الفلسطينيون ينظرون إلى اليهود الأوروبيين من خلال تجاربهم المباشرة". بالنسبة للفلسطينيين، لم يصل اليهود الأوروبيون كلاجئين، بل كغزاة هدفهم الوحيد هو الاستيلاء على فلسطين بأي وسيلة ممكنة لتحيق التطلعات الاستعمارية الصهيونية، التي بدأت قبل نصف قرن من صعود هتلر إلى السلطة. ولهذا السبب ينظر الفلسطينيون إلى اليهود الأوروبيين ليس باعتبارهم لاجئين عاجزين، بل كمستعمرين مسلحين يرتكبون المذابح. وهذا هو المنظور الذي أراد "إدوارد سعيد" نقله في مقالته "الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها".

الكثير من العنف الإسرائيلي يراه الغرب على أنه نابع من ما عاناه أولئك اليهود الذين وصلوا إلى شواطئ فلسطين بعد فرارهم من النظام النازي والمحركة، ليواجهوا حملة "معادية للسامية" عنيفة أخرى من "العرب" بفلسطين والدول المجاورة. ومن ثم فإن العنف الذي تمارسه إسرائيل، مهما كان مؤسفاً في بعض الأحيان، يُنظر إليه في واقع الأمر باعتباره دائماً دفاعاً عن النفس. وفي السياق نفسه، فإن المقاومة الفلسطينية، سواء كانت سلمية أو عنيفة، والتي كانت ولا تزال دفاعاً عن النفس ضد المستعمرين الغزاة الأجانب، يتم تفسيرها على أنها جزء من حملة "معادية للسامية" ضد اللاجئين اليهود وليس مقاومة للمستعمرين الصهاينة. لقد أدى الزلزال الأخير الذي أحدثته عملية المقاومة الفلسطينية "طوفان الأقصى" إلى عودة الغربيين من جميع المشارب السياسية إلى الموقف الافتراضي، وهو الإدانة الصريحة لمقاومة الفلسطينيين الأصليين ودعم مستعمرهم الأوروبيين الذين كانوا تم تصويرهم كضحايا، ليس لمقاومة السكان الأصليين الذين أخضعوهم على الأقل منذ عام 1948.

وفي ضوء هذا التاريخ، ليس هناك سبب وجيه يجعل هذه الكراهية الغربية للشعب الفلسطيني تشكل صدمة لأي شخص في العالم العربي. وهؤلاء القلائل الذين يدافعون عن هذا الحق يريدون من الفلسطينيين أن يطيحوا بالعنصرية الاستعمارية والقمع بالوسائل "السلمية" - ربما عن طريق إلقاء الزهور على الدبابات الإسرائيلية أو كتابة رسائل إلى الأمم المتحدة في أقصى الأحوال، سعت تعبيرات التعاطف الغربية إلى تخفيف القمع الذي يعتقدون أن الفلسطينيين يجب أن يتحملوه بنبل كضحايا للعنف الاستعماري الإسرائيلي المتواصل دون تهديد إسرائيل بأي شكل من أشكال العنف الانتقامي. وختم "ميدل إيست آي": "وفي اللحظة التي فعل فيها الفلسطينيون ذلك في 7 أكتوبر، اختفى كل التعاطف".

<https://www.middleeasteye.net/opinion/how-israel-war-gaza-exposed-west-hatred-palestinians>